ذاكرة عراقية

العدد (1273) الاحد (13) تموز 2008
NO. (1273) Sun . (13) July

هل كان عبد الكريم قاسم يصلح أكثر لقيادة الجيش؟

رشيد الخيُّون

كتب الكثيرون، محبين وخصوما، عن رئيس وزراء العراق الأسبق عبد الكريم قاسم. لكن كتابة عبد اللطيف الشوّاف، وزير التجارة ومحافظ البنك المركزي العراقي والمستشار القانوني في شؤون النفط في عهده، لها وقع آخر (فهو ابن عم وابن خالة عبد الوهاب الشواف. وما لهذا الاسم من تاريخ في الخصومة والانقلاب على عهد عبد الكريم قاسم، في الذكرى الأولى من ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨) يضاف إلى ذلك أن صاحب الكتاب الشوّاف ظل قريباً من عبد الكريم حتى اليوم الأخير من عهده، فكانت آخر جلسة له معه ليلة السابع من فبراير شباط ١٩٦٣، قبل يوم واحد من انقلاب البعثيين الذي أطاح به. وعلى الرغم من هذا القرب ظل الشواف بعيداً عن الولاءات الشخصية والحزبية، فهو قريب إلى عبد الكريم بالمسافة التي ظل بها قريبا إلى ابن عمه وكل الخصوم. هذا ما أشارت إليه كتاباته حول الشخصيات العراقية، ومنها الكتاب الذي بين أيدينا. كان عهد عبد الكريم قاسم في نظر الشوّاف عهداً مضطربا. لكنه في الوقت نفسه كان عهداً واعداً لولا حدوث انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣، وإسقاطه بهذه الطريقة الدرامية. بحسب المؤلف كانت هذه السنة حبلى بتحقيق الكثير من طموحات ثورة ١٤ تموز. وفي مقدمتها تحقيق الانتخابات النيابية، وعودة الحياة الدستورية والديمقراطية، بما هو أفضل من السابق. وكان سيعلن عنها في ١٢ شباط من العام نفسه. وقد كلف عبد اللطيف الشوّاف في بكتابة مسودة لمشروع الدستور.

وما يؤكد رواية الشوّاف السالفة الذكر، أن جريدة (لوموند) الفرنسية أجرت مقابلة مع قاسم في الخامس من شباط ١٩٦٣، أجاب فيها على سؤال الصحافي حول وعده بدستور دائم وانتخابات ومجلس تشريعي. قال: ؟أتحدى أن يذكر لي مثال واحد عن تعهد قطعته ولم ألتزم به. ففي يوم من الأيام، وكان ذلك في ١١ حزيران ١٩٥٩ خلال مؤتمر الشبيبة الديمقراطية الذي انعقد في بغداد، قطعت وعدا ببناء مدينة الثورة. آنئذ عدني كثيرون مجرد حالم وطوباوي. لكن الجميع اليوم بإمكانهم الذهاب إلى المدينة اللطيفة التي يعيش فيها ثلاثمئة وخمسون ألفاً من السكان، جميعهم من ذوي الدخل المحدود. وستكون لها قريباً حدائق عامة وشوارع مبلطة ومسبح كبير... أما فيما يخص الدستور، فإنني أتعهد الآن علناً بأن لجنة من الخبراء ستشكل قبل نهاية شهر شباط هذا، لتكلف بإعداد مشروعي دستور دائم وتشريعي انتخابي جديد. وسنضع تحت تصرفها من أجل ذلك نصوص عدد من الدساتير الأجنبية، ومنها النصوص السويسرية والألمانية والفرنسية والمصرية والسورية. وفي كل الأحوال، انني أتعهد علنا أمام الشعب بأن يكون عام ١٩٦٣ هذا عام ولادة الجمعية الوطنية العراقية؟ (مجلة أصوات، ترجمة حرفية عن لوموند الفرنسية).

كان عبد الكريم قاسم، بحسب شهادة صاحب الكتاب، بعيداً كلية عن الطائفية والعشائرية وأي انتماء آخر ماعدا الانتماء العراقي. ؟فلم يكن لأي من عناصر النسب والعشيرة والمذهب وجهة العيش والعرق القومي أي تأثير على قراراته السياسية، التي كانت تستهدف تطوير المجتمع العراقي كله بالتساوي، والإخاء بين تعدداياته المختلفة؟.

يذكر الشوّاف أن عبد الكريم كان يأخذه الفرح عندما يرى تجمع السحب في السماء، فهو وعد بالماء، سيسقي الأرضي التي وزعت على الفلاحين بموجب قانون الإصلاح الزراعي. لكنه من جانب آخر ظل حريصا على احترام رؤساء العشائر وملاكي الأراضي السابقين، كان ذلك ضمن أخلاقه البغدادية. فلا يتأخر عن توديع أحد المراجعين منهم حتى الباب الخارجي لوزارة الدفاع، ويوصي بالاهتمام به. وظل بعد إعدام ناظم الطبقجلي ورفعت الحاج سري، عصبي المزاج مكتئبا، تأخذه نوبات من البكاء والندم. وقد حصل أن شاهده الشوّاف، بعد اعدامهما في ساحة أم الطبول، يضع أمامه على الطاولة ثلاثة أقداح من الشاي، واحداً له واثنين للطبقجلي وسري. لكنه يعود ويقول: إنهما أغريا عبد الوهاب الشوّاف على الثورة بالموصل ثم تخليا عنه. قال الشوّاف: كان وقع تنفيذ الإعدام شديداً عليه، لأن من سلوك عبد الكريم الشخصي وحتى السياسي أن الرحمة فوق العدل. كيف لا وقد أعفى عن المتورطين بمحاولة اغتياله في تشرين الأول ١٩٥٩ وعذره في ذلك أنهم استهدفوا حياته شخصيا، أما المتورطون في ثورة الموصل فقد استهدفوا الدولة والثورة.

وربما لا يعرف أحد من قبل أن الشوّاف الذي أيدت حركته الأطراف القومية، وجمال عبد الناصر، أنه خاصم عبد الكريم قاسم لأنه ضم عبد السلام عارف، الذي بدا متحمساً قومياً لتحقيق الوحدة الاندماجية مع مصر، إلى جماعة الضباط الأحرار.

كذلك أطنب الشوّاف في الحديث عن نزاهة عبد الكريم قاسم المشهورة عنه بين العراقيين. مؤكداً قصة (الصفرطاس)، وهو مجموعة أوان مرتبط بعضها ببعض. يحمل فيها عادة العمال أو البقالون أو الموظفون طعامهم إلى محال أعمالهم. وعبد الكريم، وهو رئيس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة ووزير الدفاع، ظل يحمل له الصفرطاس من بيت أخيه حامد أو من بيت أخته. وعندما يذكر المشاركون عبد الكريم قاسم الغذاء المحمول في الصفرطاس يذكرون تصرفاً عفوياً لا يقصد فيه صاحبه إثارة الجمهور، وهو مشهد تبدو غرابته واضحة بعد ما شاهده العراقيون من عجائب في قصور صدام. وإن تبسط الشوّاف بمزايا عبد الكريم قاسم، ونفى عنه كل ما دار حوله من طعون في أخلاقه وسلوكه الشخصي، إلا انه لم يخف امتعاضه وامتعاض وزرائه من طريقة إدارته للدولة، والتخبط في القرارات. فكان من عاداته عقد مجلس الوزراء في ساعة متأخرة من الليل، وبذلك يتحمل الوزراء أعباء العمل ليلا ونهارا، فلا يبقى لهم الوقت الكافي لاتخاذ القرارت الصائبة، وكذلك يجعلهم التعب يوافقون على أي قرار يطرح في المجلس من دون تمحيص ودراسة. وكثيراً ما كان أذان الفجر يدركهم وهم مجتمعون في وزارة الدفاع. ومن سلوكياته غير المحمودة، كان اعتماده على المرافقين العسكريين في إدارة الدولة، وفي تسيير الكثير من الأمور الخارجة عن اختصاصهم، وربما كانوا يستشارون بتوزير فلان أو إعفاء فلان من الوزارة، وإن أراد عبد الكريم إيصال فكرة، أو معرفة الأجواء العامة عن قضية ما بثها إلى أحد مرافقيه، كي تأخذ طريقها غير المباشر، ويأتيه صداها.

يميل الشوّاف في كتابه إلى أن عبد الكريم قاسم يصلح لقيادة الجيش أكثر من صلاحيته لقيادة الدولة. لكن مع ذلك استطاع مواجهة مواقف حرجة سببها له التزامه، غير المنظور، بمبادئ الحركة الوطنية العراقية، منها تعامله في قضية النفط، وإيمانه العميق بتحرير النساء من الفوضى الفقهية، فعزم على إصدار قانون الأحوال الشخصية، وتحمسه المنقطع النظير لرفع مستوى الفقراء، حتى بدا أنه عدو الأغنياء. وكان يردد دائماً، على مسمع من الشوّاف، أن يكون لكل عراقي بيت، وأنه سيدحر الفقر. لكن كم تحتاج تلك الطموحات إلى رؤية سياسة وحكمة جماعية. ظل عبد الكريم قاسم يتصرف بنزاهة مفرطة وبنية طيبة إلى جانب فردية مفرطة أيضاً. وعلى رغم ذلك انتعش الاقتصاد والإعمار في سنوات حكمه حتى استيقظ العراقيون على بيان قتله. وقد نعتت الصحافة الفرنسية ذلك الانقلاب بمهرجان الدم العراقي. كتاب عبد اللطيف الشوّاف ؟عبد الكريم قاسم وعراقيون آخرون؟ (الوراق ٢٠٠٤)، الذي توفي صاحبه منفياً بالقاهرة ١٩٩٦ بعد أن تمكن من تدوين خواطره السياسية والاجتماعية وشهادته على ما حدث في الأربعين سنة الماضية، يعد مرجعاً مهماً، وذلك لمعلوماته وتوازنه بين اتجاهات أغرقت العراق بأزمات ودورات دموية.

مقتل محارب نظيف

حمزة الحسن

(يا عام شؤم، يا عام فئران، يا عاما نجسا!
عاليا كان خطك ومعدنيا
على ضفاف الأقيانوس
والهواء مثل سلك
من عواصف وتوتر.
ولكنك أيضا يا أمريكا
ليلة زرقاء، ومستنقعية:
مستنقع وسماء، احتضار
قلوب مسحوقة
مثل برتقالات سوداء ومهشمة
في صمتك، صمت الاقبية)
الشاعر بابلو نيرودا . النشيد الشامل.

حين عاد القتلة من حفلة الدم الوحشية بعد دفن جثة الزعيم عبد الكريم قاسم في ضواحي ديالى، فوجئوا باختفاء الجثة، وأعلنت يومها حالة الطوارئ من قبل دولة كبرى بمقاييس البلدان النامية بحثا عن جثة هارية للزعيم الذي ظل حتى اللحظة الأخيرة من حياته يرفض حوار السلاح، هو المحارب النظيف، الذي لم ينجب أطفالا بعد منتصف الليل، ولم يبح بسر صديق، ولم يخن أحدا، كما فعل الشباطيون، و العقداء الغجر، وفرسان الفصاحة والوصم والوشاية.

وحين ألقوه في النهر كي لا يصير رمزا، لم يكونوا يدركون لسذاجتهم انهم صنعوا رمزيا أبديا، وان المخيلة العراقية منذ أقدم العصور تربط بين الزعيم الغائب وبين الأنهار المقدسة، وان أكثر حالات الانتظار قداسة عند العراقيين تلك التي تتم عند حافات الأنهار في مواكب احتفالية من الشموع والفرح والقداسة والأمل،وان غياب جثة القائد في الأساطير والحكايات العراقية يجعلها حاضرة أبدا، ويخلق فكرة الانتظار المثمرة القادمة من الموروث الديني المحتفل بفكرة المنقذ والتغيير من انتظار المسيح وحتى انتظار المهدي، وهذا "الأمل الايجابي" بالعودة هو الذي حول الزعيم الغائب إلى رمز، كما تحول قتلته إلى روث في ذاكرة الناس، ولعنة عبر الأجيال كلما جاع طفل أو ناحت عراقية على ضفاف الفرات من الذل كناقة تائهة.

من قتل عبد الكريم قاسم؟

إن أية محاكمة منصفة تبحث من جديد عن قتلة عبد الكريم قاسم، لا تستهدف قطعا البحث في تفاصيل قضية جنائية، بل تستهدف إعادة الاعتبار لإنسان انتهكت حرمته حيا وميتا هو الذي صان حرمات حتى الذين حاولوا قتله، وتستهدف هذه المحاكمة محاكمة مرحلة، وإنصاف التاريخ قبل انصاف الرجل.

إن الزعيم عبد الكريم قاسم لم يحكم العراق وحده لحظة واحدة، فحين دخل القصر الرئاسي(وكان ينام عند شقيقه حامد مثل أي جندي في وزارة الدفاع!) ليحكم وجد في انتظاره جوقة منفرة من الزعماء والحالمين والفاشلين، وتحمل بصبر أسطوري تلك المرحلة العجيبة من الضباط الانقلابيين الذين قتل أغلبهم بعد ذلك على أبواب دار الإذاعة أو سراديب الأمن أو علب الليل في صراعات حول السلطة، وماتوا وعيونهم مفتوحة مثل دجاج المزابل على هذا الكرسي المشؤوم الذي صار يلاحقنا ويطاردنا في كل مكان حتى هذه الساعات العصيبة.

وقد يكون الزعيم هو الرئيس الأخير الذي يخاصمه وزراؤه في الليل، فيزورهم في النهار، وهو المسؤول العراقي الوحيد عبر التاريخ الذي مات (دونما جاه أو قصور أو أطيان أو حتى ملابس مدنية)، وهو الرئيس الوحيد الذي حاول عبد السلام عارف أن يغتاله وجها لوجه بعد حوار ساخن في وزارة الدفاع، ورفع في وجه الزعيم مسدسه بحضور فؤاد عارف الذي اندفع نحو عبد السلام مع الزعيم وجرداه من مسدسه، وجلس في هذا الوقت معه يعاتبه عتاب صديق لصديق وتوسل إليه أن يقبل مؤقتا منصب سفير!

اغتيال رجل أم مرحلة؟

إذا كان سهلا اغتيال الرجل بحفنة رصاص على جدار فهل سيكون اغتيال التاريخ بالسهولة نفسها؟

وإذا طمست جثة الضحية وألقيت في النهر، فهل سيكون سهلا طمس حقبة من التاريخ؟

ايهما أكثر خطورة: اغتيال الرجل أم اغتيال العدالة؟

وكيف نفرق، إذا كان لابد من ذلك، بين من يعدم رجلا وبين من يعدم مرحلة؟وإذا كان قتل الزعيم قد أوقف مرحلة، وأنحرف المسار نحو طرق جهنمية مهد لصعود أكثر من فاشية متناسلة منذ خروج جدنا آدم من الجنة عاريا إلى هذه البرية التي تناسل فيها الشرطة والثكنات والسجون وكلاب الليل والنهار، أفلا يؤدي تشويه مرحلة إلى تشويه التاريخ والبشر والمستقبل كما حصل من بعد؟

وهل حقا ان قضية الزعيم هي قضية بحث في ملفات صارت في ذمة التاريخ أم انها قضية الأمس واليوم والغد؟ وإذا كان كارل ماركس يبحث في انتفاضة "الرعاة" في أوروبا قبل مئات السنوات، والمؤرخ توينبي يدرس تاريخ الحضارات، وكلود ليفي شتراوس تاريخ الأقوام البدائية والتشكيلات العرقية الأولى، فلماذا يتحول البحث عن قضية الزعيم عبد الكريم، وهي قضية حية وشهودها احياء، إلى قضية ملف في ذمة التاريخ؟

وهل التاريخ العراقي على هذه الدرجة من النظافة الأخلاقية بحيث ان إثارة قضية أو جريمة من هذا النوع ستخدش الصورة النقية لتاريخ تأسس بحفر أنفاق من الدم حتى اليوم؟ أم ان فتح ملفات هذه الجريمة ستقود إلى كشف جرائم أكبر مخفية ومنسية ومطمورة ومسكوت عنها؟ وماذا نقول لأولادنا غدا حين يسألوننا عن تاريخهم الجديد؟ زعيم مجنون حقا!

الذين قالوا والذين قبلوا من دون فحص أو شك أو سؤال أو دليل أو برهان بتهمة جنون الزعيم كانوا قد صدقوا حقا.هذا الرجل مجنون حقا.

والدليل؟

من يحكم وطنا في تلك الحقبة لا يمكن أن يكون بشرا عاديا أو طبيعيا.

من يتحمل أعباء تلك المرحلة التي نهض بها الزعيم، كان لا بد أن يكون زعيما بمقاييس لا يفهمها الرجال الصغار، الرجال الوشاة، الرجال الجوف/الرجال الدمى/ الرجال الشرطة.فهل يجوز أن تكتب مزبلة سيرة حياة شرفة؟هل يجوز حقا أن تكتب جيفة سيرة حياة الورد؟وهل يحق لصرصور أن يكتب تاريخ فراشة؟!

من يحاكم من؟

ليس من حقنا أبدا، لا في الأمس ولا اليوم ولا غدا، أن نطلب من الرجل الذي طاردناه حتى في سرير نومه . كما يذكر حسن العلوي في كتاب رؤية ما بعد العشرين . وجعلناه يحمل أحذيته وكتبه وينتقل من منزل شقيقه إلى وزارة الدفاع وهو يحمل سريره العسكري "السفري" بيده كأي مؤجر أعزل ووحيد، ليس من حقنا أن نحاسبه كيف حكم ولماذا حكم وماذا فعل.

ولعل حادثة وضع منشورات تحت وسادته من قبل طفل وحدها تضع الزعيم في مرتبة المتصوفة الكبار والرهبان الذين لا تتكرر ولادتهم مرة أخرى.وإذا كان للرجل أخطاء فهي أخطاء التاريخ والأحزاب. وكان الزعيم كبيرا في ضميره وفي أفعاله وفي أخطائه لأنه ولد وعاش وحكم في حقبة تحول ومنعطف.

في أي مكان في العالم يكون فيه بيت الرئيس مفتوحا كمقهى أو ملعب للأطفال؟ وفي أي زمان يدخل رئيس دولة إلى غرفة نومه ليجد تحت وسادته منشورات معادية ولا يفتح تحقيقا ويترك المنزل بهدوء بعد أن يعتذر من الجيران؟!وكان لحاكم غيره أن يفتح أنفاقا من الدم على هتاف أو مزحة أو ظن أو رصاصة أو حلم.

يروي حسن العلوي هذه الحادثة التي كان شاهدا فيها ومدبرا لها:

(تقرر وضع المناشير في غرفة عبد الكريم قاسم بوساطة أحد الأطفال الذين اعتادوا الدخول والخروج إلى بيت حامد قاسم(؟!) ودسها تحت سرير الزعيم. ولدى دخول الزعيم إلى غرفته فوجئ بحزمة مناشير مخبأة تحت الفراش. لم نلاحظ ردة فعل ضد القائمين بهذا العمل وهم معروفون لديه ولدى عائلته(؟!) ...).

السر الخفي ولعبة التوازنات

أي نوع من الأعباء والقوى تحمل عبد الكريم قاسم؟ وما هي حقيقة لعبة التوازنات؟ وما هو السر الخفي وراء عدم إعلان دستور دائم للبلاد؟ ثم.... من قتل الزعيم؟

لا نريد الدخول في تفاصيل التهم الكثيرة التي ألصقت بالزعيم والتي لم تصمد أمام امتحان الزمن ، أو انكشفت كوجوه مناضلي عصر الدبابة الأمريكية الذين وجدوا في الحرب منقذا من العاهة والنسيان والموت والخرف كتوابيت تضع مساحيق تجميل أمام جيل جديد يحتقرها بكل أنواع الاحتقار اليوم وغدا. لكننا سنتوقف عند بعض المحطات الرئيسة التي أغفلت عمدا أو سهوا أو جهلا.لكن اسمحوا لي أن أثبت سطورا كتبها الشاعر المرحوم نزار قباني عن الرئيس الياس سركيس مع الفارق بين الرجلين والمرحلتين.

يقول نزار:

(من الظلم أن نطلب من الرئيس سركيس أن يعطينا حسابا تفصيليا عما فعله خلال عام من رئاسته.

لأننا جميعا لم نعطه الفرصة ليفعل شيئا.

ومن الظلم أن نسأله: كيف حكم؟

لأننا جميعا تآمرنا عليه حتى لا يحكم.

تظاهرنا بأننا معه ولم نكن في النهاية إلا مع أنفسنا.

هو غني بضميره القومي وقوي بتماسك عوالمه الداخلية، لا بهشاشة عوالمنا.

هو لا يمتلك موهبة التمثيل، ولا يوافق على توظيف أحزانه كراقصات في المسرح الاستعراضي العربي).

وهذه هي بعض خصال الزعيم عبد الكريم وأكبر بما لا يقاس. كان وحيدا في مواجهة عواصف بدأت تهب عليه من كل مكان ولم يجد إلى جانبه زوجة أو صديقا ليبثه أحزانه التي هي أحزاننا، وحين كان يعود إلى غرفته يجدنا تحت سريره ننغص عليه نومه ولم نكن نعلم، أو كنا نعلم، اننا كنا نفتح تاريخا من الدم لم ينقطع حتى اللحظة.

كنا نريد أن نصنع من الزعيم قاتلا أو مغرورا أو طاغية وكان يريد أن يحتفظ بحبه للفقراء وتصوفه بهم وبساطته في العيش التي وصلت مستوى الجمال غير المدرك لنفسه.

يكرر جرجيس فتح الله في تعليقه على كتاب(العراق في عهد قاسم) تأليف أوريل دان أن الجماهير تواجه الزعيم أينما حل بصيحات حادة:(. عبد الكريم اعدم، اعدم!).

وجرجيس نفسه استعار الاسطورة الصينية التي يتلخص معناها بأن الحكومة الجائرة أكثر خطورة من النمر في محاولة لوصف حكم عبد الكريم قاسم.وهذا أمر غريب من رجل قانون يعرف قبل غيره وأفضل من غيره انه لا يحق لأحد في هذا العالم أن يجعل من نفسه الحاكم والنص والقضية والشاهد الوحيد في النفي والإثبات، وهو القاعة والجمهور، والقرار، والقانون، والمحامي، دون إعطاء المتهم أو من ينوب عنه فرصة الدفاع عن النفس وشرح الظروف. لكن الخفة العراقية الشهيرة تجعل من كل من هب ودب قاضيا ولو في مقهى أو رصيف او حمام أو مشرب. لم لا؟ اذا صار شهود الزور هم شهود الحقيقة والضحية غائبة او مغيبة، ولا احد يفحص أو يسأل أو يراجع.

منطق السيد جرجيس هنا ليس منطق رجل قانون قضى عمره في المحاماة، بل هو يتحدث بعقلية سياسي عراقي قادم من أزمنة المحاكمات السياسية التي تشطب وتلغي وتصم وتدين وتجرم الناس وهم في حالة نوم دونما حاجة إلى دليل أو برهان أو ملف أو شهود أو دفاع ...الخ... والمسافة كبيرة بين الاتهام السياسي الذي لا قيمة له وبين الاتهام القانوني القائم على عناصر المحاكمات كما عرفها تاريخ الإنسان في صورها الصحيحة.

تاريخ وأحزاب وأعاصير

هل واجه الزعيم قوى سياسية وأحزابا فقط أم واجه قوانين تاريخية ومرحلة انهيار قيم وانفلات رغبات في مرحلة تحوّل ومنعطف وتدهور منظومة معايير اجتماعية وثقافية سائدة وتفسخ اجتماعي سياسي و أخلاقي؟

في مثل هذا النوع من المراحل العاصفة التي تهب على المجتمعات خلال أو بعد الحروب أو التي تعقب الكوارث الطبيعية أو الثورات، والهزات الاجتماعية الكبرى، يحصل ما يسميه علماء الاجتماع بحالة فقدان المعايير Norm-lessness.كما هو حاصل اليوم!

وتؤدي هذه الحالة إلى ضرب من العدمية السياسية والاخلاقية وانهيار منظومة القيم والمثل والأعراف وفقدان المقاييس، وفي مثل هذه الظروف الزلزالية لا تؤسس القوانين أو الدساتير لأن الفورة الاجتماعية في ذروتها ولم تستقر بعد ولأن الدساتير التي توضع في مثل هذه الأجواء لا تعكس بصورة دقيقة رغبات وقيم وآمال وحقوق الناس ومثلهم وتقاليدهم التي تكون في حالة إزاحة وتراجع وصراع قيم ومصالح وطبقات جديدة وفئات تتقدم وأخرى تتراجع ونظام أفكار وأخلاق يصعد في مشهد عنف تاريخي جبار.

ولقد اثبت الزعيم عبد الكريم بعدم سنّه دستورَ دائم للبلاد في تلك الظروف العاصفة حكمة وصواب المشرع، لأننا لا نستطيع أن نقيم حفلا موسيقيا هادئا وحالما على ظهور التماسيح.

كان يريد أن يهدأ التاريخ من عربدته وتتوقف قوى الردح ويراهن على الأيام ولم يكن يراوغ لأن الدساتير تعكس مرحلة الاستقرار النسبي لمجتمع ما في حقبة ما، ولا توجد أمة شرعت دستورها في ظروف الاحتراب الاهلي ومناخات الحرب الاهلية المستترة التي مهدت للخراب القائم اليوم وبعد اليوم.

كان المسرح السياسي يومها ولا يزال هو مسرح دعارة بامتياز. وكان عبد الكريم قاسم أشبه براهب وجد نفسه، كما في رواية الإخوة الأعداء لكازنتزاكي، في وسط تقاطع نيران وهو يصرخ.. المحبة، المحبة، حتى تحول جسده الى ميدان رمي!

هناك من يعتقد ان إعدامات مؤامرة الشواف كانت ردة فعل على تحديات وضعها في وجه الزعيم خصمه جمال عبد الناصر. ولكني أتساءل ماذا كان سيفعله الرئيس الفرنسي شيراك أو الرئيس التركي أو الهندي أو الأمريكي اليوم لو أن عقداء في الجيش أغاروا على قصر الأليزيه أو البنتاغون مثلا وقصفوه بالصواريخ في تمرد عسكري مكشوف يهدد بحرب أهلية ضارية، وكان من نتيجته مئات أو آلاف الضحايا؟. الرئيس الامريكي بسبب ذلك، مثلا، شن حربين بل حربا كونية!

إن المتهمين في هذه المحاولة حصلوا في أول مرة وآخر مرة في تاريخ العراق على فرصة نادرة في الدفاع عن أنفسهم علنا أمام الناس من شاشة التلفاز، بل ان الطبقجلي في دفاعه عن نفسه قد كسب تعاطف قطاعات واسعة من الشعب، وهذا نادر في ظروف محاكمة علنية فريدة من نوعها في تاريخ العراق حيث تستطيع أسرة المتهم رؤيته وهو يدافع عن نفسه، في حين ان المتهم اليوم يختفي ليس هو فحسب، بل حتى أسرته وبعض أفراد عشيرته ومعارفه وجيرانه وكلبه وبقراته وقريته وغلايونه وصوره أيام العرس ومزرعته وقاضيه إذا تعاطف معه ونصف عدد أصدقائه المقربين ومن صادفه في ذلك الصباح المشؤوم ومن دفع أجرته أو ثمن شايه أو حلق رأسه وحتى من تشاجر معه في لحظة القبض عليه!.

وكان أوريل دان منصفا وحكيما حين قال في كتابه المذكور أن الزعيم مارس الحد الأدنى من العنف في مرحلة تحتمل الكثير من الاخطاء. تحملها الزعيم بصبر كبير عملاق هو الأعزل والوحيد لأنه كان يعرف أنه ذاهب إلى الأبدية، وهم إلى المزبلة كما حدث في كل مكان وفي كل زمان وكما سيحدث.

كيف يستطيع رجل مهما كانت قدرته في مرحلة عاصفة وفي مناخ دولي ملتبس وعدائي، أن يواجه قوانين تاريخية ومشاكل يعود بعضها إلى مئات السنين ويوقف غليان التاريخ في أعنف لحظاته؟.

لكن هذا الرجل المشتبك في صراع أسطوري كأحد آلهة الإغريق في صمت خرافي، وفي كبرياء حزين، هو كبرياء رجال التاريخ الكبار، وحزن المآذن المنعزلة، والكاتدرائيات الكبرى المهجورة في العشب والصخور والصمت والنجوم، حين يعود إلى منزله من معارك التاريخ وأقداره ليرتاح يجدنا حرمانه حتى من النوم الهادئ على سرير الهاوية وبكاء الرجال العائدين من أقدار كبيرة.

إن احتلال وسادة رجل بقامة الزعيم وحرمانه من آخر مساحة للدموع السرية لرجل أعزل وأحد أبطال الملاحم الكبرى هو عمل جبان بكل مقاييس الأرض.

وعلينا أن ندفع ثمن هذا العقوق.

وثمن صمتنا على عقر ناقة صالح.

ودفعناه وسندفع ما هو أمر.

رجل وتاريخ الغوغاء

التهم الأخرى التي تهاوت هي لعبة التوازنات:

قال له الإسلاميون: الشيوعية كفر والحاد.

أعدمهم يا سيادة الزعيم.

هز رأسه باسما وصمت.

قال له الأكراد: نريد عودة كل العصافير الكردية المشردة وتعيد لنا الخضرة إلى كوردستان وتعيد لنا موتانا وزرقة السماء.

هز رأسه باسما وصمت.

قال له القوميون: نريد وحدة عربية فورية.

اعدم الشعوبيين يا سيادة الزعيم.

هز رأسه باسما وصمت.

قال له الشيوعيون: ماكو مؤامرة تصير والحبال موجودة. اعدم، اعدم ياكريم.

هز رأسه باسما وصمت.

قال له الليبراليون: دستور عاجل الآن، الآن، وليس غدا كما كان يصرخ الجادرجي.

هزا رأسه باسما وصمت.

قال له كبار السن: أرسلنا يا سيادة الزعيم إلى لندن. اعد إلينا فحولتنا.

هز رأسه باسما وصمت.

قال له كبار قادة الجيش: لا برلمان ولا دستور ولا حريات ولا بطيخ. أعلن الأحكام العرفية حالا يا سيادة الزعيم.

هز رأسه باسما وصمت.

قال له شيوخ العشائر: ذهبت القيم والأخلاق ودب الفساد. أنقذنا يا سيادة الزعيم.

هز رأسه باسما وصمت.

وحينما خرجوا جميعا وظل وحيدا بحث عن صديق يبثه أحزانه الخاصة فلم يجد غير ضميره يعانقه وأجهش في بكاء الآلهة.

هل كانت القرارات تنساب عبر قنواتها أم تعطل في الطريق خلال مرورها بمراكز قوى متعددة ومعادية للرجل؟ وهل كان شركاء الزعيم صباح يوم الثورة مؤهلين حقا لقيادة دولة أم أن مهمتهم انتهت في ذلك الصباح؟ وهل كان الرجل يحكم بمفرده؟

صباح يوم الجريمة

صباح يوم الجريمة (٨ شباط) يذهب عقيد إلى معسكر الرشيد ويطلب من آمر اللواء تسليمه اللواء المدرع ويخبره بأن أمرا صدر بذلك من الانقلابيين ولم يكن ذلك صحيحا.

الصباح نفسه: يذهب عبد السلام عارف وهو غير مؤهل لقيادة ليس دولة فحسب، بل قطيع فئران تجارب، إلى العنصري أحمد حسن البكر وكانا متقاعدين، ويذهبان بكل سهولة إلى معسكر أبو غريب والوشاش (لاقتراض!) سرية دبابات تندفع بهم إلى وزارة الدفاع في وليمة الموت والغدر والجبن.

هذه الحوادث تدل بوضوح صارخ على أن جريمة قتل الزعيم كانت علنية ومكشوفة وأن أحدا لم يتحرك لمنعها وهي تشبه جريمة قتل نصار في رواية غابريل ماركيز(حكاية موت معلن) التي كانت علنية معروفة ومتوقعة من البلدة لكن أحدا لم يحذر نصار حتى قتل أمام الناس الذين كانوا كلهم يعرفون ساعة القتل وكانت النساء تراقبه من الشرفات يوم خرج ،إلا نصار وحده!

أخيرا من قتل الزعيم؟

نحن جميعا شركاء في قتله العلني والمكشوف.

سواء الذين أطلقوا عليه الرصاص أو الذين أطلقوا عليه الدموع.

أو الذين صمتوا ولم يتحركوا لمنعها.

أو الذين حاولوا أمس واليوم تشويه الرجل والمرحلة.

أيها الزعيم،

أنت ترقد في قاع النهر ممزوجا بطين وأساطير الأنهار المقدسة.

وسنظل ننتظرك نحن الأبناء التعساء، أبناء الصرايف، الذين أحببتهم كثيرا، على ضفاف الأنهار.

وعندما ستخرج علينا يوما من النهر،

سنفرش قمصان اليتامى تحت قدميك،

لكي تمر أيها الصديق.

صورة لمشهد اعدام عبد الكريم قاسم